المركز الماركسي - اللينيني للدراسات و الأبحاث و التكوين

انجلز

رسالة إلى بيبل

مكتبة النجمة الحمراء

انجلس

رسالة الى بيبل (١٦١)

لندن في ١٨–٢٨ آذار (مـارس) ١٨٧٥

عزيزي بيبل !

تلقيت رسالتك المؤرخة في ٢٣ شباط (فبرايـر) وقد سررت جداً لأنك في خير صحة وعافية

تسألني رأينا في كل هذه الحكاية ، حكاية التوحيد ، ولكن نصيبنا من هذه الحكاية ، لسوء الحظ ، هو كنصيبك تماما فلا ليبكنخت ولا اي كان ابلغنا اي شيء ، ولذا فنحن ايضا لا نعرف الا ما تفيدنا الصحف ولكنها قبل نشر مشروع البرنامج ، منذ ثمانية ايام ، لم تنشر شيئاً وبالطبع اثار هذا المشروع بالغ دهشتنا .

فان حزبنا غالباً ما مد يده الى اللاساليين وعرض عليهم المصالحة او على الاقل التعاون ، وغالبـا مـا صده بوقاحة هازينكليفر وهاسلمان وتولكه ومن لف لفهـم الى حد ان اي طفل كان بوسعه ان يستنتج انه اذا كان هؤلاء السادة ياتون الينا عارضين المصالحة ، فلأنهم واقعون في مازق . وبما ان طابع هؤلاء الجماعة اصبح معروفا جيداً ، فانه من واجبنا ان نستغل المازق الذي آلوا اليه ، لكي نحصل على جميع الضمانات الممكنة بصورة يستحيل معها على هؤلاء السادة ان يعززوا من جديد

مواقعهم المتزعزعة في عيون العمال على حساب حزبنا . ولذا كان ينبغي ان نستقبلهم باشد ما يكون من البرودة والحذر ، وان نعلق قضية التوحيد على درجة الاستعداد التي يبدونها للتخلي عن شعاراتهم الانعزالية وعن «مساعدة الدولة» ، ولقبول برنامج أيزيناخ لعام ١٨٦٩ بخطوطه الاساسية او لقبول طبعة جديدة من هذا البرنامج محسنة ومنطبقة على الوضع الراهن فمن الناحية النظرية ، اي فيما يتعلق بما هو حاسم بالنسبة للبرنامج ، ليس لحزبنا اطلاقا ما يتعلمه من اللاساليين ، اما اللاساليون فمن المفيد لهم ، طبعا ، ان يتعلموا من حزبنا فالشرط الاول للتوحيد كان ان يكفوا عن ان يكونوا انعزاليين ، اي لاساليين ؛ وهذا يعني انه ينبغي عليهم ، إن لم يتخلوا تماما عن هذا الترياق الشافي الشامل الذي يسمونه مساعدة الدولة ، ان يعتبروه على الاقل تدبيرا انتقاليا وثانويا ، بين كثير غيره من التدابير الممكنة ان مشروع البرنامج يثبت ان اصحابنا يتفوقون كثيرا على قادة اللاساليين من الناحية النظرية ، ولكنهم بالمقابل ، ليسوا اطلاقا في مستواهم من حيث حبك الحيل السياسية وهكذا فان «الشرفاء» • قد تلقوا هذه المرة ايضا درسا قاسيا من غير الشرفاء

اولا ، اقر هذا البرنامج جملة لاسال الطنانة ، ولكنها الخاطئة تاريخيا ، القائلة بانه ازاء الطبقة العاملة ، لا تشكل جميع الطبقات الاخرى سوى كتلة رجعية واحدة ان هذه الموضوعة غير صحيحة الا في بعض الحالات الاستثنائية ، مثلا ، في حال ثورة بروليتارية ككومونة باريس ، او في بلد ليست البرجوازية وحدها هي التي كيفت الدولة والمجتمع على صورتها ومثالها ، بل حيث

• اطلق اسم «الشرفاء» على الايزيناخيين . الناشر .

جاءت البرجوازية الصغيرة الديموقراطية بعدها وانهت هذا التحويل حتى نتائجه الاخيرة . فاذا كانت البرجوازية الصغيرة الديموقراطية ، في المانيا مثلا ، من عداد هذه الكتلة الرجعية الواحدة ، فكيف استطاع حزب العمال الاشتراكي-الديموقراطي ان يسير طوال سنوات ، يداً بيد معها ، مع حزب الشعب ؟ وكيف استطاعت صحيفة « Volksstaat » (« فولكسشتآت ») ان تستمد كل محتواها السياسي تقريبا من صحيفة « Frankfurter Zeitung » (« فرانكفورتر زايتونغ ») (١٦٢) البرجوازية الصغيرة الديموقراطية ؟ وكيف حدث ان سبعة من مطالب هذا البرنامج بالذات ظهرت منطبقة ، كلمة كلمة ، مع برنامج حزب الشعب والديموقراطية البرجوازية الصغيرة ؟ واني اقصد بهذه المطالب المطالب السياسية السبعة المرقمة من ١ الى ٥ ومن ١ الى ٢ ، والتي ليس بينها مطلب غير برجوازي ديموقراطي (١٦٣)

ثانيا ، ان مبدأ اممية الحركة العمالية هو ، فعلا ، مبدأ مرفوض تماما في الوقت الحاضر ، مبدأ ينكره اناس كانوا ، طوال خمس سنوات وفي اصعب الاحوال ، يطبقون هذا المبدأ باروع ما يكون ان كون العمال الالمان يسيرون اليوم على رأس الحركة الاوروبية انما يرتكز قبل كل شيء على الموقف الاممي حقا الذي وقفوه ابان الحرب (١٦٤) ؛ وليس ثمة بروليتاريا اخرى كان بوسعها ان تسلك مثل هذا السلوك القويم والآن ، وقد اصبح العمال في البلدان الاجنبية يتمسكون في كل مكان بهذا المبدأ بنفس الحزم والقوة اللذين تسعى الحكومات بهما الى كبت كل محاولة لتحقيقه في منظمة من المنظمات ، يقترح عليهم الآن ان يتخلوا عنه في هذا الوقت بالذات ! وما عساه ان يبقى اذن من اممية الحركة العمالية ؟ لن يبقى حتى ذلك

الأمل الضعيف بتعاون مقبل بين عمال اوروبا في النضال من اجل تحررهم ، لن يبقى على الاكثر سوى ذلك الأمل الضعيف «بتآخي الشعوب العالمي» في المستقبل ، و«بالولايات المتحدة الاوروبية» التي يقول بها برجوازيو عصبة السلام !

وبديهي انه لم يكن من الضروري التحدث عن الاممية بوصفها منظمة ولكنه كان ينبغي على الاقل عدم التراجع عن برنامج ١٨٦٩ ، والقول بهذا الصدد على النحو التالي تقريبا : بالرغم من ان حزب العمال الالماني يعمل قبل كل شيء ضمن حدود الدولة (فليس من حقه ان يتحدث باسم البروليتاريا الاوروبية ، وليس من حقه بالاحرى ان يدلي بـآراء خاطئة) ، فانه يدرك ، مع ذلك ، تضامنه مع عمال جميع البلدان وسيكون مستعداً على الدوام لأن ينفذ في المستقبل ايضا ، كما نفذ حتى الآن ، الواجبات الناجمة عن هذا التضامن ومثل هذه الواجبات موجودة حتى ولو لم يعلن الحزب نفسه عضواً في الاممية او يقل عن نفسه انه منتسب اليها . وهذه الواجبات هي مثلا تقديم المعونة ومنع كسر الاضرابات ، واتخاذ التدابير اللازمة لكي تطلع هيئات الحزب العمال الالمان على احوال الحركة في الخارج ، والتحريض ضد الحروب التي يثيرها الملوك او قد يثيرونها ، والتزام موقف ابان هذه الحروب كموقف العمال الالمان في ١٨٧٠ و١٨٧١ ، الذي اصبح قدوة يقتدى بها الخ ..

ثالثا ، لقد سمع اصحابنا بان يفرض عليهم اللاساليون «قانون الاجور الحديدي» الذي يرتكز على مفهوم في الاقتصاد السياسي ولى عهده تماما ، ونعني به ذلك المفهوم القائل ان العامل لا يتلقى ، بوجه عام ، سوى الحد الادنى من الاجرة وذلك بالضبط لأن ثمة دائما فيضا من العمال ، حسب النظرية المالتوسية لنمو

السكان (وتلك كانت حجة لاسال) ولكن ماركس قد اثبت بالتفصيل في «رأس المال» ان القوانين التي تحدد الاجور معقدة كثيراً وان هذا القانون او ذاك هو الذي يسود حسب الظروف ، وان هذه القوانين ليست حديدية اطلاقاً بل هي على العكس مطاطية جداً ، وانه يستحيل بوجه عام حل هذه المعضلة ببضع كلمات كما تصور لاسال ان المبررات المالتوسية للقانون الذي نقله لاسال عن مالتوس وريكاردو (مع تحريف ريكاردو) كما وردت ، مثلا ، في الصفحة ٥ من «كتاب القراءة للعمال» ، وهي ماخوذة من كراس آخر للاسال ، انما دحضها ماركس بالتفصيل في فصل «تراكم الرأسمال» . وهكذا فانهم يتبنى «القانون الحديدي» الذي قال به لاسال ، انما تبنوا فكرة خاطئة ومبررات خاطئة

رابعاً ، ان المطلب **الاجتماعي الوحيد** الوارد في البرنامج هو مساعدة الدولة التي قال بها لاسال ، وقد ورد باقل الاشكال تستراً وكما سرقه لاسال عن بوشيه . وهذا بعد ما اثبت براكه بروعة كل تفاهة هذا المطلب (١٦٥) ،بعد ما اضطر جميع خطباء حزبنا تقريباً او جميعهم بالضبط الى محاربة «مساعدة الدولة» هذه في ضمرة نضالهم ضد اللاساليين ! حقاً ، لم يكن بوسع حزبنا ان يحقّر نفسه اكثر مما فعل . لقد هبط بالاممية الى مستوى اماند غيغ ، وبالاشتراكية الى مستوى الجمهوريه البرجوازية التي قال بها بوشيه الذي كان **يعارض الاشتراكيين** بهذا المطلب قصد محاربتهم !

وفي احسن الاحوال ، ليست «مساعدة الدولة» ، بالمعنى الذي يقصده لاسال ، سوى **تدبير** في جملة غيره من التدابير ، من اجل بلوغ الهدف الذي تعنيه هنا الكلمات العرجاء التالية : «تمهيد السبيل الى حل المسالة الاجتماعية» ، كانما لا تزال ثمة ، بالنسبة

الينا ، وفي المجال النظري ، مسألة اجتماعية لم تحل ! ولذا ، عندما يقال وان حزب العمال الالماني يرمي الى الغاء العمل المأجور ، وبالتالي الى محـــو الفوارق الطبقية ، وذلك بتنظيم الانتاج الجماعي في الصناعة والزراعة في عموم البلاد وانه يؤيد كل تدبير من شانه ان يسهم في بلوغ هذا الهدف» ، — فلن يكون بمستطاع اي لاسالي ان يعارض هذا القول بوجه من الوجوه .

خامسا ، ليس ثمة اية اشارة الى تنظيم الطبقة العاملة ، بوصفها طبقة ، عن طريق النقابات . وتلك نقطة جوهرية بالغة ، اذ أن هذه بالضبط منظمة طبقية حقيقية للبروليتاريا تخوض البروليتاريا في صفوفها نضالاتها اليومية ضد الرأسمال ، وتكون لها بمثابة مدرسة ، منظمة لا تستطيع خنقها اية رجعية مهما بلغت قساوتها (كما هي الحال الآن في باريس) . وبالنظر الى الاهمية التي تتخذها هذه المنظمة ايضا في المانيا ، نرى من الضروري اطلاقا التنويه بها في البرنامج ومنحها مكانا في تنظيم الحزب بقدر الامكان .

ذلك ما فعله اصحابنا ارضاء للاساليين . ولكن عمّا تنازل هؤلاء ؟ ان حاصل هذا التنازل هو انه يبرز في البرنامج عدد كبير من المطالب الديموقراطية الصرف المشوشة جداً التي قسم منها يرد لمجرّد انه على الموضة ، «كالتشريع الشعبي» القائم ، مثلا ، في سويسرا ، والذي شرّه في هذا البلد اكثر من خيره ، هذا اذا كان له اي تاثير بوجه عام . ولو انهم قالوا «ادارة بواسطة الشعب» لكان لكلامهم معنى . ثم انه ليس ثمة اية اشارة الى الشرط الاول لكل حرية ونعني به ان يكون كل موظف مسؤولا عن كل اعماله الرسمية ازاء كل مواطن امام المحاكم

العادية وطبقا للقانون العام . ولن اسهب في القول بان مطالب كحرية العلم وحرية الضمير ترد في كل برنامج ليبيرالي برجوازي وانها تبدو هنا غريبة نوعا

ان الدولة الشعبية الحرة قد تحولت الى دولة حرة . والحال ، ان الدولة الحرة ، بمعنى هاتين الكلمتين النحوي ، هي دولة حرة ازاء مواطنيها ، وبالتالي دولة تقوم فيها حكومة استبدادية ولذا ينبغي الاقلاع عن كل هذه الثرثرة حول الدولة ، ولا سيما بعد كومونة باريس التي لم تكن دولة ، بمعنى الكلمة الاصلي فلطالما انتقدنا الفوضويون بصدد «الدولة الشعبية» ، رغم ان مؤلف ماركس ضد برودون • ثم «بيان الحزب الشيوعي»•• قد اوضحا صراحة ان الدولة ستنحل من تلقاء نفسها (sich auflöst) وتزول ، عند اقامة النظام الاجتماعي الاشتراكي . وبما ان الدولة ليست سوى منظمة موقتة تستخدم في النضال ، في الثورة من اجل تحطيم الاعداء بالعنف ، فان من الخرق والتناقض القول بدولة شعبية حرة وما دامت البروليتاريا تحتاج الى الدولة ، فانها لا تحتاج اليها من اجل الحرية ، بل لقمع اعدائها ، وما ان يصبح بالامكان التحدث عن الحرية حق تزول الدولة بوصفها دولة . ولذا نقترح الاستعاضة في كل مكان عن كلمة «الدولة» بكلمة «المشاعة» (Gemeinwesen) وهي كلمة المانية قديمة ملائمة تعادل كلمة Commune (كومونة) الفرنسية .

• كارل ماركس . «بؤس الفلسفة . جواب على «فلسفة البؤس» للسيد برودون» . الناشر .

•• راجع هذه الطبعة ، الجزء الاول ، ص ص ٤١–٩٦ . الناشر .

ان استعمال تعبير «القضـــاء على كل تفاوت اجتماعي وسياسي» بدلا من تعبير «الغاء جميع الفوارق الطبقية» يفسح المجال للتساؤل والشك فبين بلد وآخر ، بين اقليم وآخر ، وحتى بين محلة واخرى ، سيظل ابداً بعض التفاوت في ظروف المعيشة ، تفاوت قد يمكن تخفيفه الى الحد الادنى ، ولكنه لن يمكن ابداً ازالته تماما . فان سكان جبال الألب ستختلف دائما ظروف معيشتهم عن ظروف معيشة سكان السهول ان التفكير بان المجتمع الاشتراكي يعني سيادة المساواة انما هو تفكير فرنسي وحيد الجانب ، يرتكز على شعار «الحرية ، المساواة ، الاخاء» القديم ، وكان له ما يبرره في زمنه ومكانه ، لأنه كان يستجيب لدرجة معينة من التطور ، ولكنه ينبغي الآن تجاوزه ، شانه شان كل المفاهيم الوحيدة الجانب التي قالت بها المدارس الاشتراكية السابقة ، لأنه لا يؤدي الا الى التشوش ولأنه توجد الآن اساليب ادق لبسط هذه المسالة

ساتوقف عن البحث ، رغم ان كل كلمة تقريبا في هذا البرنامج ، المكتوب علاوة على ذلك بلغة ركيكة ، تفسح المجال للانتقاد . ولقد صيغ بنحو لن نوافق معه اطلاقا ، ماركس وانا ، في حال اقراره ، على ان ننتسب الى الحزب الجديد ، القائم على هذا الاساس ، فنضطر الى التفكير حديا بالموقف الذي نتخذه منه (وعلنا ايضا) . خذ علما انهم في الخارج ، يجعلوننا نحن مسؤولين عن جميع اقوال واعمـــال حزب العمال الاشتراكي-الديموقراطي الالماني . فهذا ما فعله باكونين مثلا في مؤلفه «الدولة والفوضى» حيث جعلنا مسؤولين عن كل كلمة طائشة قالها او كتبها ليبكنخت منذ تاسيس صحيفة Demokratisches Wochenblatt (ديموقراطيشيس فوخينبـلات) (١٦٦) . ان الناس يتصورون اننا نمسك من هنا بكل خيوط الحركة ،

في حين انك تعلم مثلي اننا لم نتدخل قط تقريباً في شؤون الحزب الداخلية ، واننا اذا كنا تدخلنا ، فقد كان ذلك لمجرد ان نصلح بقدر الامكان ما كنا نعتبره اخطاء ، الاخطاء النظرية فقط انك سترى بنفسك ان هذا البرنامج هو نقطة انعطاف قد تحملنا بكل سهولة على ان نرفع عن انفسنا كل مسؤولية عن الحزب الذي اقرّ هذا البرنامج .

ان البرنامج الرسمي لحزب من الاحزاب يتسم على وجه العموم ، باهمية اقل مما تتسم به اعماله ولكن البرنامج الجديد هو دائما بمثابة راية ترفع امام انظار الجميع ، وعلى اساسها يرى العالم الخارجي الى الحزب ولذا ينبغي في مطلق الاحوال الا يكون البرنامج خطوة الى الوراء . اما مشروع البرنامج هذا فهو بالضبط خطوة الى الوراء بالنسبة لبرنامج ايزيناخ وكان ينبغي التفكير فيما سيقوله عن هذا البرنامج عمال البلدان الاخرى وفي التاثير الذي سيحدثه استسلام البروليتاريا الاشتراكية الالمانية برمتها للاساليين

وفضلا عن ذلك ، فاني مقتنع بان توحيداً على مثل هذا الاساس لن يدوم سنة واحدة . فهل يقبل خيرة رجال حزبنا بان يرددوا في خطبهم جمل لاسال حول قانون الاجور الحديدي ومساعدة الدولة ، تلك الجمل التي حفظوها عن ظهر قلب ؟ اني لود ان اراك انت ، مثلا ، منصرفا الى هذا العمل ! واذا ما فعلوا ذلك ، فان سامعيهم سيصفرون لهم . والحال ، اني على ثقة بان اللاساليين يصرون ، بالدقة ، على هذه النقاط من البرنامج كما كان المرابي شيلوك • يصر على رطله من اللحم البشري . ان

• شكسبير . «تاجر البندقية» ، الفصل الاول ، المشهد الثالث . الناشر .

الانشقاق آت ، ولكننا نكون قد جعلنا هاسلمان وهازينكليفر وتولكه ومن لف لفهم في عداد «الشرفاء» من جديد ؛ وسنخرج من الانشقاق اضعف مما مضى ويخرج اللاساليون اقوى ؛ وسيفقد حزبنا نقاوته السياسية ، ولن يستطيع ابداً ان يناضل بتفان ضد جمل لاسال ، التي سجلها حزبنا ذاته على رايته لفترة من الزمن ؛ واذا ادّعى اللاساليون اذ ذاك مرة اخرى انهم الحزب العمالي الوحيد الحقيقي ولن انصارنا هم من البرجوازيين ، فان هذا البرنامج سيكون في متناولهم لدعم ادعاءاتهم ومزاعمهم فان جميع التدابير الاشتراكية الواردة في هذا البرنامج هي تدابيرهم ، اما حزبنا ، فانه لم يسهم فيه الا بمطالب الديموقراطية البرجوازية الصغيرة ، التي وصفها هو بالذات في نفس البرنامج بانها جزء من «الكتلة الرجعية» .

لقد أجّلت ارسال هذه الرسالة لك ، لاني كنت اعلم انه لن يخلى سبيلك الا في اول نيسان (ابريل) ، على شرف عيد ميلاد بيسمارك ، ولم اشأ ان اجازف بها واعرّضها للمصادرة اثناء محاولة تهريبها لك . ولكني تلقيت للتو رسالة من براكه يعرب فيها ، هو ايضا ، عن شكوكه الكبيرة بصدد البرنامج ويريد ان يعرف رأينا في الموضوع . وبقصد التعجيل ، ارسل هذه الرسالة اليه ، لكي يقرأها هو ولكي لا اضطر الى تكرير كل الحكاية . واضيف قائلا اني كتبت صراحة ايضا الى رامّ اما ليبكنخت ، فقد كتبت له بايجاز . واني لا استطيع ان اغفر له عدم كتابته لنا اية كلمة عن كل الحكاية قبل ان يفوت الاوان نوعا (في حين ان رامّ وغيره كانوا يعتقدون انه ابلغنا) . ولكن ليست تلك هي المرة الاولى التي يتصرف فيها على هذا النحو ، والدليل على ذلك الرسائل العديدة والمزعجة التي تبادلناها معه —

ماركس وانا – غير انه تجاوز الحدود هذه المرة ، وعليه فاننا نرفض السير معه في هذه الطريق رفضا قاطعا .

اما انت ، فحاول ان تدبر الامور بصورة تستطيع معها المجيء الى هنا في هذا الصيف . وستحل ، بالطبع ، ضيفاً عليّ ، واذا ما سمح لنا الطقس ، مضينا لقضاء بضعة ايام على شاطئ البحر ، ولا شك انك ستفيد من هذه الراحة بعد ان قضيت وقتاً طويلا في السجن .

مع تحيتي الودية
المخلص لك ف . ا .

لقد غيّر ماركس شقته مؤخراً ؛ وعنوانه الجديد هو الآن التالي : ٤١ ، ميتليند بارك ، كريسينت ، نورد ويست ، لندن .

نشر للمرة الاولى في كتاب :
A. Bebel. « Aus meinem Leben ».
المجلد ٢ ، شتوتغارت ،
عام ١٩١١

يصدر حسب نص الكتاب
تمت الترجمة نقلاً عن الالمانية